تُعدّ حركة الأدب والفكر والحضارة، في الأندلس، أثراً من آثار البيئة السياسية(1) والطبيعة في الأندلس، على الرّغم من أن البيئة الأساسية لهذه الحركة مشرقية الأصول والروح.

وهذه الأرض التي أرسى فيها العرب أسس دولة ذات سمات حضارية جديدة تتميز بطبيعتها الخلابة، التي تختلف عمّا ألفوه في جزيرة العرب، وما في أرضها من مظاهر الجفاف الذي فرضته الطبيعة عليها.

وإلى جانب البيئة الطبيعية الساحرة، ببحارها وأنهارها وجبالها ووديانها وأجوائها المعتدلة، كانت هناك حياة اجتماعية(2) متميزة بالانفتاح تتيح لناسها أجواء من الحرية، وحياة الرّخاء، وما ينشأ في ظل ذلك من شيوع الاختلاط واتخاذ ما يُمتّعون به أنفسهم من غناء وسماع الموسيقى، ووسائل المتعة والتسلية، ولا شكَّ أن كلَّ هذه المظاهر إنما تمت في ظلّ مدن مزدهرة بعمرانها وقصورها، ومتنزهاتها، ومجالس اللهو فيها.

في ظِلِّ هذه الأجواء الطبيعية الجميلة، ومظاهر الحياة الاجتماعية المنفتحة وما يسودها من حرية ظهر الأدب العربيُّ في حُلّة جديدة في لغته وصوره ومضامينه وشكله وما أتاحه ذلك من ولادة فنين جديدين يتمثلان بالموشح والزجل.

([1]) ابن زيدون، الديوان، تحقيق حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت،الطبعة الأولى 1990، ص 5-7.

([2]) ابن زيدون، الديوان، ص 7-9.

ومن ثمّ فمن المتوقع أن نجد ابن زيدون، الذي سينصَبُّ هذا البحث على دراسة جانب جديد من لغته، يقول، في وصف أحد متنزهات المعتضد(3):

لُمَـعٌ طَلَّـةٌ مِـنَ العَـيشِ مّـا إنْ لِلهَـوَى عَـنْ مَحَلِّهـا تعـويضُ

سَـــوَّغَتنِي نَعِيمَهَـــا نَفَحـــاتٌ لِلمُنـــى مـــن سَـــحَابِها تَـــرويضُ

من خلال التّمعن في هذين البيتين، تأسرنا جماليّة اللغة والأسلوب ، من خلال توظيف الشّاعر لمفردات تعبر عن حالته النفسيّة ، إذ جاءت الطبيعة بمثابة مسوغ مهم للحياة ، بتوظيفه (سوّغتني نعيمها نفحاتٌ) ، فكأن الطبيعة تروض ابن زيدون من خلال توظيفه للمصدر (تفعيل) إذ جاءت كلمتي (تعويض وترويض) مع التركيز على حرفي التاء والضاد بصفتهما من الحروف المهموسة التي تتناغم مع الجو العام للقصيدة ، الذي يتشح بحزن الشّاعر وكآبته . فالتاء والضاد حرفان من مجموعة الوقفات الأسنانيّة – اللثويّة . (1) إذ توحي هذه الحروف بمدى الأزمة النفسيّة التي تنتاب الشاعر ، فجاءت الطبيعة الأندلسية بجمالها مخففة عليه هذا الضغط .

ابن زيدون، أحد الشعراء الكبار في الأندلس، الذين كان للطبيعة الجديدة أثر واضح في شعره من حيث المعاني ، والصور، وبناء القصيدة. غير أنّ أهمّ ما بدا لي وأنا أدرس شعره لغته التي كان أثر الطبيعة فيها واضحاً جداً إلى حد أنّ شطراً كبيراً منها شكّل

(3) ابن زيدون، الديوان، ص 282.

ظاهرة جديدة اشترك في تكوينها الحبّ والطبيعة. وهذه الظاهرة مدار البحث مستمدة من وصف الشاعر ابن زيدون(*) بـ: (شاعر الحب والطبيعة)(2)، فإنعام النظر في شعر ابن زيدون يكشف بوضوح اختلاط لغة الحب بلغة وصف الطبيعة إلى حدّ التمازج والتماهي. ولعلّ هذا ما يشكل ظاهرة جديدة في شعره تستحق الدراسة والبحث.

عرف عن ابن زيدون ولعه الشديد بوصف الطبيعة، كما اشتهر بحبه لولاّدة بنت المستكفي(*) وهيامه بها. في البدء كان يستعين بمظاهر الطبيعة ،ولا سيما النباتية

(1) فوزي حسن الشايب : محاضرات في اللسانيات ، منشورات وزارة الثقافة ، عمّان طبعة الاولى، 1999، ص165-169. انظر : الخليل بن احمد الفراهيدي : مقدمة كتاب العين : تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ، ص 37-38.

(*) تعريف بالشاعر ابن زيدون: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي، ولد بالرّصافة من ضواحي قرطبة من أب عالم وأديب ومتفقه، عُرِف بسعة روايته، وقد توفيّ وابنه لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره، عاش في قرطبة. ديوان ابن زيدون ، تحقيق وشرح حنّا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1990، ص15.

(2) علي عبد العظيم : ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ، ص 372.

(*) ولادة بنت المستكفي: ابنة الخليفة الأموي المستكفي، الذي تولى الخلافة سنة 1023م/ 414هـ، وخُلع بعد فترة قصيرة أي سنة 416هـ، ولدت ولادة سنة 1001م من أم حبشية، ونشأت نشأة متواضعة، إلاّ أنها كانت على درجة من الجمال والظرف، التقى بها ابن زيدون في بيتها الذي كان ملتقى للأدباء، وأُغرِم بها قائلاً: "كنت في أيام الشباب، وغُرَّة التصاب، هائماً بغادة، تُدعى ولادة"، ومن المرجح أن صلته بها لم تبدأ إلا بعد زوال الدولة الأمويّة في الأندلس ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، احمد بن محمد المقرّي التلمساني، ت : يوسف الشيخ محمد البقاعي ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ،1986 .

في غزله وصفاً لولّادة ، وتشبيهاً لمفاتنها بمفاتن الطبيعة. يا روضةً طالما أجنَتْ لواحِظَنَا وَرداً ، جَلاهُ الصِّبا غَضًّا ، ونسرِينَا

ويا حياةً تملَّينَا بِزهرتِها مُنًى ضُرُوباً ، ولذَّاتٍ أفانينا (1)

تطور هذا المنحى بعد سجنه للقطيعة بين الحبيبين ، الذي اضطر معه الشاعر إلى التّوجه إلى الطّبيعة يشكو إليها آلام الفراق، ويطلب إلى برقها أن يوصل السُّقيا إليها (2):

يا ساري البرق غادِ القصر واسقِ بـــــــــــــــــه مـن كـان صِـرف الهـوى والـودِّ يسقينا

يوجه الشّاعر خطابه للبرق ويستجديه علّه يسقي ولّادة ، وهي تسقيه ، فولّادة هي البرق ، وهي حياته فكل جماليات الطّبيعة تتمثل بولّادة .

(1) ابن زيدون ، الدّيوان ، ص 390 .

(2) ابن زيدون ، الديوان ، ص 389 .

(3) ابن زيدون ، الديوان ، ص 389.

وحين يخاطب الحبيبة مباشرة يستذكر الأشجار والغصون والأزهار، التي كانت تجري في أفيائها اللقاءات السعيدة، وحين طال سجن الشاعر زاد لجوءُهُ للطبيعة يبثها أحزانه ومواجده،

ويا نَسِيمَ الصِّبَا ، بَلِّغ تحِيَّتَنا من لَوْ عَلى القُربِ حَيًّا كان يُحيِين (3)

وحين كثُر خطابه للطبيعة بدأت مرحلة جديدة، إذ كان يجد فيها من يستعين به على مواجهة سيل النّكبات.

ولا شكّ في أن لغتي وصف الطبيعة والغزل، حين تستثمران معاً على مدى طويل، لمعالجة تجربة ذاتية في إطار قصيدة واحدة ستأتلفان وتتقاربان، وأنهما حين تستخدمان معاً لرسم صورة شعرية بعينها سيتاح لهما مزيد من الألفة والشروع بمحاولة التمازج. أمّا حين يتوجه

الشاعر بالخطاب إلى إحدى مفردات الطبيعة كالشجرة أو القمر أو البرق، ليبثها شكواه أو يشرح لها أحزانه فهو يرى حينئذٍ فيها مخايل الحبيبة دون وعي منه، ويضطر إلى أن يستعير من خطاب الحبيبة ما يتوجه به إلى الطبيعة، وعلى مدى الزمن، وخاصة حين تغيب الحبيبة نتيجة الهجر أو الفراق بسبب السجن، تبدأ الطبيعة بتعويضه عن حضور الحبيبة، وتبدأ اللغة أيضاً بمطاوعة الشاعر على توجيه الخطاب إلى الحبيبة البديلة. وهكذا يتهيأ الجو لتمازج لغتين أو استعانة إحداهما بالأخرى، لِتَكون من ثَمَّ لغة ذات سمات جديدة.

إن للطبيعة أثراً واضحاً في شعر ابن زيدون، فصورها منثورة في تضاعيف قصائده بحيث تشكل ركناً مهماً من بنيتها، إذ تتغلغل في ثنايا صوره وتشكيلاته الشعرية، وفي غزله ومديحه، ونجواه وشكواه، واعتذاره، فهي أداةُ تعبيره، وتصويره البياني، وفي كل فنون أدائه(4). وهيام ابن زيدون بالطبيعة متوقع منه، فأهل الأندلس جميعاً، أحبوا الطبيعة الساحرة الخلابة، وهاموا بها، واندمجوا فيها ووصفوها، وصدروا في ذلك عن صدق عاطفة، تعبيراً عن شدة ارتباطهم وتعلقهم بها. فكيف لا يحبها ابن زيدون؟

ابن زيدون المرهف الأحاسيس ذو المشاعر الرقيقة، الذي ألف أجواء النعيم، فضلاً عمّا يتمتع به من قدرة على استشفاف معاني الجمل في تجلياتها البهيجة، لذا تغنى بمظاهر الطبيعة واعتبرها ملهمته، فكانت إحدى بواعث الإبداع في شعره.

فالطبيعة بتجلياتها الساحرة تستحوذ على مشاعر الشاعر، وأفكاره، ومن ثم فهي تخضع لسطوة خياله، فتظهر تشكيلاتها صورة معبرة عن رؤاه وأفكاره. إن صور الشاعر وجمله الشعرية بعامة هي نتاج تفاعل خيال الشاعر مع إيحاءات الطبيعة، فكلما ازدادت وتيرة هذه الإيحاءات تسامت أخيلة الشاعر ليبدع في تصويرها(5).

(4) انظر: المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق عبد السلام الهراسي وسعيد أحمد أعراب، إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية، ودولة الإمارات العربية، 1980، المجلد الأول، ص 61-69.

(5) فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، الكويت، 204، ص 168.

ولقد جاءت صور الطبيعة هذه بفعل خيال الشاعر ملأى بالحركة والحياة، فهي في حركة دائبة ترى وتسمع وتشعر وتتحرك وتتعاطف مع الشاعر.

وإذا كانت الطبيعة بكل مظاهرها الساحرة والجذابة، مصدر إلهام لابن زيدون، فاستقى من منابعها كلَّ صور إبداعه، فإن أثرها في إبداعه وإلهامه، قد ازداد إذ شاركته تفاصيل قصة حبّه وسعادته وأحداث مكابدته مواجد الهجير والقطيعة بينه وبين ولّادة، وآلام سجنه وما لقيه فيه من مرارة فراق الوالدة والحبيبة والأهل والأصدقاء وعذاب فقدان الحرية.

لقد دعت الطبيعة وِلادة حبِّ ابن زيدون لِوَلّادة ، وشهدت أعذب لحظات الودّ والصفاء وتساقي كؤوس الهوى، فكانت شريكة الحبيبين في هذه المشاهد البهيجة، في مجالس اللقاء في أحضان الرِّياض، وفي ثنايا القصيدة وبين صورها أيضاً، فكانت هي والحبيبة عناصر بناء كِلّ صور الإبداع، وتقاسمت هي والحبيبة مهمة مدّ الشاعر باللغة التي تُسعفه في تصوير مشاهد السعادة والهناء.

وأسعفت الطبيعة الشاعر إبّان معاناته ألم الهجر وعذاب الصدود، فكانت معينة في إيصال توسلاته واعتذاراته وتمنيه معاودة الوصال، فالطبيعة كانت شفيع الشاعر تتوسل معه وتستعطف الحبيبة القاسية، وكانت لغة مفرداتها مطاوعة للشاعر في معانيه ورسم مشاهد توسلاته. فاالطبيعة نهضت بكل مفرداتها بمهمة ايصال الشكوى المرّة إلى الحبيبة .

وتجلت براعة الشاعر في المزج بين مفردات الطبيعة بكلِّ ما تشتمل عليه من موجودات، ولغة الحبِّ بكل ما فيها من مشاعر الشوق والحنين وتمني اللقاء، وتصوير ألم الفراق، ويتمثل هذا (6):

أَعَادَ الصَّباحَ الطَّلْقَ لَيْلاً عَلَيهِمُ فَجاءَ، وأَثنى نَاظِرَ الشّمسِ أرْمَدَا

فَحَلَّ هِلالاً في ظَلاَمِ عَجَاجَةٍ تُلاحِظُهُ الأَقمارُ في الأُفقِ حُسَّدا

فاستخدام مفردات الطبيعة مثل: الصّباح، والليل، والشّمس، والهلال، والظلام، والأقمار، والأفق، نسجَ منها صوراً فنيّة غايةً في الجمال، فقد أضاف الرمَدَ إلى عينِ الشّمس، وألحق بالأقمار صفة الحسدِ التي يختصُّ بها بعض بني البشر.

وفي قصيدة أخرى نجد الشاعر يوظف مفردات الطبيعة لتشاركه آلام الضيق والشدّة التي لازمته في سجنه فراح يستعطف أبا الحزم، ويطلب منه المغفرة بقوله(7):

هَـــــلِ الرِّيـــــاحُ بـــــنَجمِ الأرضِ عاصِـــــفَةٌ

(6) ابن زيدون، الديوان، ص 238–239.

(7) ابن زيدون، الديوان، ص 37.

أَمِ الكُسُـــــوفُ لِغَيـــــرِ الشَّـــــمسِ والقَمَـــــرِ؟

إنْ طـــالَ فـــي السِّـــجنِ إيـــداعِي فـــلا عَجَـــبٌ

قَّـــدْ يُـــودَعُ الجَفْـــنَ حـــدُّ الصَّـــارِمِ الـــذَّكَرِ

تظهر هنا قدرة ابن زيدون التّصويرية من خلال امتزاج الطبيعة ، وما فيها من مكونات مع أحاسيسه المتأججة، فيتوحد مع الطبيعة، فإذا بها تشاركه معاناته، هذه المشاركة الوجدانية أضافت الحيوية والجمال لهذه الأبيات ، من خلال اللغة التي نهضت بهذه المهمة الجديدة. التي برع فيها ابن زيدون من خلال توظيف الجمل الإنشائية ، التي تجعل من مظاهر الطبيعة عنصراً مشاركاً له في حيرته .

فهو يخاطب محبوبته ولّادة (8):

(8) ابن زيدون، الديوان، ص 421.

يـــا فَتِيـــتَ المِســـكِ، يـــا شَـــمسَ الضُّـــحى

يـــا قَضـــيبَ البَـــانِ، يـــا ريـــمَ الفَـــلاَ

إنْ يكُـــنْ لـــي أَمَـــلٌ غَيْـــرُ الرِّضَـــا

مِنـــــكِ، لا بُلِّغـــــتُ ذَاك الأَمَـــــلاَ

فمحبوبته هي شمس الضُّحى، وقضيب البان، وريم الفلا، ولا أمل له في هذه الدُّنيا غير رضاها. فالشّاعر يطوّع الطبيعة ليعبر بها عن مكنوناته تجاه حبيبته ولّادة، وهنا يحارُ المتأمل: من هي الملهمة الأولى للشاعر، أهي الطبيعة الأندلسية، أم هي ولّادة؟

وغزل ابن زيدون مصدر من مصادر هذه اللغة الجديدة، ومحور هذا الحبّ ولّادة بنت المستكفي سليلةُ بيت الخلافة(9)، الغادة الفاتنة الجمال الشاعرة المثقفة، جليسة الشعراء والأدباء، المعروفة بدقة الطبع، وكرم النفس، وجمال الروح، وحضور البديهة. استولت هذه الفتاة على مشاعر ابن زيدون فهام بها حباً، وبادلته الحب، فكتب فيها أرقّ القصائد، حتى اقترن ذكره بذكرها، واسمه باسمها. وتنطوي هذه القصة على معان جعلتها موضع اعتبار وعناية فهي تمثل في معناها العام هذه التجربة الإنسانية، بكل ما جاشت به مشاعر الإنسان في أحوال الحب المختلفة(10)، إنّ حب ابن زيدون لولادة كان حباً قوياً عميقاً، فاض بأعذب الشعر، وباحت قصائده بكثير من الأحوال التي يمرّ بها العاشق من شكوى، وحنين، وعتاب، وهجر. وفي كل هذه الحالات كانت الطبيعة حاضرة وشاهدة على هذا الحب ، فلا عجب أن تشاركه بلغتها وأسلوبها ، وما تملكه من سحر .

فالطبيعة والمرأة تبدوان متلازمتين في شعر ابن زيدون، وبخاصة في الصور التي تفتنُّ اللغة في تشكيلاتها، إذ طوّع الشاعر اللغة لهذه المهمة الفنية الصعبة، حين جعل من الطبيعة محوراً تدور حوله قضاياه تجاه الحبيبة ولادة التي لم تسر علاقته بها على وتيرة واحدة، فبعد عهد الصفاء والمودة، جرت قطيعة، أعقبها تراضٍ، فقطيعة أخرى،

(9) انظر: نفح الطيب، 337/5– 343.

(10) سعيد حسن منصور: التجربة الإنسانية في نونية ابن زيدون، الدوحة، قطر، 1983، ص 3.

فهجر أحزن الشاعر وأضناه، ولم يعد أمامه للتخفيف من شدة انفعالاته في خضم هذه الأحداث غير الاستعانة بالطبيعة للتعبير عن أساه وعمق حبه لولادة11، وحزنه لفراقها، وشوقه إلى لقائها، وسعيه لاسترضائها واستعطافها، مستذكراً ما كانا ينعمان به من ود ، وهما في أحضاء الطبيعة . فالطبيعة ترعى لقاءاتهما وتسمع تناجيهما، فامتزج سحر الطبيعة بلوعة الحبّ، وذكريات الهوى، فجاءت أشعاره مزيجاً جميلاً من صور الطبيعة الغناء، والمشاعر المتأججة الدافقة12:

إنِّـــي ذكرتُـــك بـــالزَّهراءِ مُشْـــتاقا والأفْقُ طَلْقٌ، ومَرْأَى الأرضِ قد راقَـــــــــــــــــــــــــا

وللنّســيمِ اعــتلالٌ فـــي أصَـــائِلِهِ كأنَّـــه رقَّ لـــي فاعتـــلَّ إشـــفاقَا

والرّوضُ عن مائهِ الفِضِّـيّ مُبتَسمٌ كمـا شَـقَقْتَ عـن اللّبّـاتِ أطواقَـا

نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهرٍ جال النَّدى فيـهِ حتَّـى مالَ أعناقَا

[11] . انظر : علي عبد العظيم : ابن زيدون ، عصره حياته شعره ،ص 360-365 .

[12] . ابن زيدون : الديوان ، ص 398 .

ما يمنح هذه الصورة سمة الحيوية ويبثُّ فيها الحركة، أن الشاعر ابن زيدون يتميز بصدق العاطفة، وحرارة المشاعر، والبعد عن التكلف، ويزيدها في الوقت نفسه إدهاشاً وإثارة للمتلقي، قدرته على ابتكار الصور الجديدة التي تستمدُّ مادتها من اتحاد الطبيعة بالحبيبة، وهذا التمازج هو سرُّ ظهور الطبيعة بكل مفرداتها، بهذا الشكل الجميل المتناسق يستمد طراوته وجماله من الحبيبة في مختلف أحوالها: راضية غاضبة معرضة مبتسمة. ولهذا تبدو الرِّياض البهية، والنسائم العليلة، والمياه المترقرقة، تشاطره اللوعة على فراق من يحب، ويطرب له إذ تراه سعيداً مع الحبيبة في مغاني الزهراء أو في صبواته إلى لقاء ولادة عقب فراره من السجن.

اللغة التي وظفت لتصوير هذه المشاعر المتناقضة لغة سهلة منسابة مطوعة تستجيب للتعبير عن هذه العواطف المضطربة، فيها مزيج من حبّ الطبيعة، ووصف مفاتنها، واستذكار لحظات الهناء في رحابها، والحنين إلى لحظات اللقاء مع الحبيبة، وهذا يظهر جلياً في قصيدته التي قالها وهو في سجنه، يتذكر قرطبة ومغانيها وقصورها التي أثارت ذكراها أشجانه وحنينه إلى لحظات اللقاء مع محبوبته ولادة، غداة عيد الأضحى، بقوله(13):

خَلِيَلَيَّ، لا فِطرٌ يَسُرُّ ولا أضحى فما حَالُ مَنْ أَمسَى مَشُوقاً كما

لَئِنْ شَاقِني شَرقُ العُقابِ ، فَلم أَزلْ أضحى؟

(13) ابن زيدون، الديوان، ص 488.

وما انفَكّ جُوفِيُّ الرُّصَافَةِ مُشْعِرِي أخُصُّ بِمَمْحُوضِ الهوى ذِلكَ السَّفحَا
ويهتاجُ قَصْرُ الفَارِسِيّ صَبابَةً دَواعِيَ ذِكرَى تُعقِبُ الأَسفَ البَرْحَا
لِقَلبِيَ، لا تَألُو زِنادَ الأَسَى قَدْحَا

إلى أن يقول:

وأَيّامُ وَصْلٍ بالعَقيقِ اقتَضَيتُهُ فَإلاّ يَكُن مِيعَادُهُ العِيدَ فالفِصحَا
ألا هَلْ إلى الزّهراءِ أَوْبَةُ نازِحٍ تَقَضَّى تنائِيهَا مَدامِعَهُ نَزْحَا
مَحَلٌّ ارتياحٍ يُذْكِرُ الخُلدَ طِيبُهُ إذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الفتى فيهِ أو
هُناكَ الحِمَامُ الزُّرقُ تَنْدَى حِفافُها يَضحَى
ظِلالٌ عِهِدتُ الدَّهرَ فيها فتىً سمحَا

فهذا الحب العميق، المحمل بصدق العاطفة، والشوق إلى هذه الأمكنة لم يعرف إلاّ في سياق الحب والغزل، فالشّوق، والصّبابة، والهوى التي يقدح بها زناد الأسى، ثم الوصل، والميعاد، والعتاب، والمدامع. وغيرها من المفردات أليست هي عماد قصيدة

الغزل؟ بلى إن هذا الخطاب موجه أساساً إلى ديار الشاعر، إلاّ أنه يُظهر مدى شوقه إلى ذكرياته مع الحبيبة في تلك الدّيار كقوله: (وأيامُ وصلٍ بالعقيق اقتضيتُهُ).

الملاحظ أن ابن زيدون يعمد في غزله إلى وصف الطبيعة، وذكر الأماكن، وهذا ناتج عن تمازج لغة الحب بلغة الطبيعة، وهو سمة من سمات هذه الظاهرة، ومظهر من مظاهرها لدى ابن زيدون، وهنا يمكن القول إن الطبيعة أثرت الغزل لديه، ووسعت آفاقه، ومنحته جمالاً، وشعوراً وجدانياً عالياً، وهذا ليس غريباً على ابن زيدون فهو كما قلنا: (شاعر الحب والطبيعة)(14).

وجميع قصائد ابن زيدون تنحو هذا المنحى من المزج بين لغة الغزل ولغة الطبيعة، كقوله(15):

أَيوحِشُني الزَّمانُ وأَنْتَ أُنسِي ... ويُظلِمُ لي النَّهارُ وأَنْتَ شَمسِي

وأَغرِسُ في مَحبَّتِكَ الأماني ... فأجنِي الموتَ من ثمراتِ غَرسِي

لَقد جازَيتَ غَدْراً عن وفائِي ... وَبِعْتَ مَودَّتي ظُلماً بِبَخسِ

ولو أنّ الزّمانَ أطاعَ حُكمي ... فَدَيتُكَ مِنْ مَكَارِهِهِ بنفسِي

(14) علي عبد العظيم: ابن زيدون عصره وحياته وأدبه، ص 374.

(15) ابن زيدون، الديوان، ص 458.

في هذه المقطوعة نجد الشاعر يعاتب حبيبته عتاباً رقيقاً يبدأه بتساؤل عن سبب وحشة الزّمان وإظلام النهار، بالرّغم من أن الحبيبة هي مصدر الأنس، ومصدر الإضاءة فهي كالشمس نوراً وبهاءً، ومع ذلك فهو يغرس مفردات هذه المقطوعة: (النَّهار، والشَّمس، والثِّمار، والغرس) كلّها مفردات مستمدة من أحضان الطبيعة نسجها الشاعر بطريقة رائعة تعبر عن عتابه ولومه لهذه الحبيبة، وهنا لا يمكن فصل مفردات الطبيعة عن مفردات الغزل، فهما تتبادلان الوظيفة التعبيرية ، وكأن الطبيعة تتغلغل في ثنايا قصائد الغزل(16)، وهذا ما أكسب شعر ابن زيدون هذه الخصوصية والروعة، فالتّمازج والاختلاط بين لغة الحب ولغة الطبيعة، كادا يكونان، موضوعاً واحداً، وكأن الطبيعة هي التي تثير في نفسية الشاعر معاني الهوى، وتحرك مشاعره، وتصل بينه وبين محبوبته، وهذا المزج لا يتهيأ إلاّ للغة خاصة يمنحها شاعر عملاق دلالاتها الجديدة التي تؤهلها للنهوض بهذه المهمة، وهذا التطويع البارع للغة، وفّر أداة قادرة على التعبير بصدق وإثارة، عن معاني الشاعر وأخيلته وصوره ورؤاه، وتصوير تفاصيل المعاناة في كل مراحل هذه العلاقة المعقدة مع ولاّدة من لقاء، وهناء، وهجر، وفراق، وصدود...

(16) انظر: سعد إسماعيل شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1978، ص 180.

إنّ من أهم مقومات إبداع ابن زيدون وتجليات عبقريتهِ هذه اللغة الجديدة التي تجلَّت من خلال القصائد والمشاهد الشعرية، وشكّلت عنصر التمييز الذي تفوّق به الشاعر عن غيره من شعراء عصره، إذ يتجلى اختلاط لغة الحب بموجودات الطبيعة بشكل واضح، وكأن وصف الطبيعة والغزل بالمحبوبة هما موردان أساسيان لهذا الفن الجديد، نتج عنهما تمازج في لغتهما وصورهما.

ولا ضير من العودة إلى أثر الطبيعة الأندلسية الساحرة التي كانت من أهم المصادر التي استقى منها حسَّه المرهف، ومشاعره الصادقة ما يعبر عن لهفته وشوقه اللذين يمثلان بؤرة غزله كما أكدّ شوقي ضيف بقوله: "إن غزل ابن زيدون واسع التأثير بما فيه من عمق الجوى وعذاب الحب وحرقة العشق"(17). بل إن شوقي ضيف يعدّه أهم شاعر وجداني في الأدب الأندلسي فهو "أول من اعتصر فؤاده شعراً عذباً فيه جوى وحرقة وهوى ولوعة"(18)، وهو قريب في هذه الجوانب من مشاعر العذريين العميقة الصادقة، وإن كان ما يميز ابن زيدون عن غيره من الشعراء العذريين أنه كان ينال من محبوبته، فليس كلٌّ حبه تعبيراً عن الحرمان بقدر ما هو تعبيرٌ عن الحب العميق

(17) شوقي ضيف: ابن زيدون، ص 43.

(18) المصدر السابق نفسه، ص 42، 43.

والشوق الدائم، بل إن بعض نماذج شعره توحي بالإشباع، كما يظهر في النونية، إذ يقول(19):

يا روضةً طالما أَجنَتْ لواحِظَنَا ... ورداً جَلاهُ الصِّبا غَضًّا ونسرِينَا

ويا حياةً تَمَلَّينَا بزهرَتِها ... مُنًى ضُرُوباً، ولذَّاتٍ أفانِينَا

ويا نعيماً خَطرنا مِن غَضارَتِهِ ... في وَشْي نُعمَى سَحَبْنَا ذيلَهُ حينَا

فالشاعر يعبر عن مختلف أحواله مع محبوبته ولادة، بما في ذلك من صفاء وتواصل، وما فيه من شقاء وبعاد وشكوى، وألم وفراق، وفي جميع هذه الأحوال يظهر أثر طبيعة الأندلس الساحرة ماثلاً في هذا الغزل، لأن الطبيعة مرتبطة في مخيلته بالحبيبة، فهي تضحك وتزهو وتتراقص لسعادة الشاعر بلقاء محبوته، وتحزن على حزن الشاعر لهجر محبوبته، يقول(20):

خليليَّ ،لا فِطرٌ يَسُرٌّ ولا أضحى ... فما حالُ من أمسَى مَشُوقاً كما أَضحَى؟

لَئِن شاقَنِي شَرقُ العُقابِ ، فلم أزل

(19) ابن زيدون، الديوان، ص 390.

(20) ابن زيدون، الديوان، ص 488.

أخصُّ بممحُوضِ الهوى ذلك السَّفحَا

فمشاعر الشاعر تجاه مظاهر الطبيعة مشاعر محب عاشق. ولغة خطابه لغة غزل. إذ يشكل الشاعر صوره من مفردات الطبيعة، وتظهر عواطفه المتدفقة فتتشابك مع صور عشقه لمحبوبته ولادة، لذا جاءت جمله الشعرية منسوجة حتى بدت كحُلَّةٍ سُداها الغزل ولُحمَتُها مفاتن الطبيعة، فتلاحمن تلاحماً حقيقياً جعل مظاهر الطبيعة وعلاقته بمحبوبته يتماهى أحدهما بالآخر، لذا فهو حين يريد أن يظهر جمال الحبيبة "يتمثل جمال الطبيعة في الحبيب، فيناديه بغضن البان والقمر"(21):

رأيــتُ الشَّــمسَ تَطلُــعُ مِــنْ نِقــابٍ وغُصــنَ البــانِ يرفُــلُ فــي وِشَــاحِ

وقوله في قصيدة (يا راحتي وعذابي)(22):

(21) ابن زيدون، الديوان، ص 404.

(22) ابن زيدون، الديوان، ص 410.

أَلشَّـــــمسُ أَنـــــتِ، تَـــــوارتْ عـــــن نَـــــاظِرِي بالحِجَـــــابِ

مـــــا البـــــدرُ، شـــــفَّ ســـــناهُ علـــــى رقيـــــقِ السَّـــــحابِ

إلاّ كوجهِـــــــــكِ لمّـــــــــا أضـــــــاءَ تحـــــــت النِّقـــــابِ

المفردات: (الشّمس، والبدر، والسّحاب، والإضاءة) كلّها مستوحاة من الطّبيعة ، وهذا ما يؤكد ظهور أثر الطبيعة في شعر ابن زيدون، فهو ماثلٌ في معظم قصائده ، "فالطبيعة لديه تمنح شعر الحب والغزل نغماً جميلاً تتجاوب أصداءه، طبيعة فاتنة تسبغ على المحبوب كل صفات الجمال"(23).

فالتّمازج بين لغة الحب ووصف الطبيعة انطلقت من الحب أولاً، لأن عاطفة الشاعر القوية المحملة بالافتتان بجمال الحبيبة جعلته يلجأ إلى معطيات الطبيعة ليعبر من خلالها عن هذا الجمال تشبيهاً ومقارنة ومفاضلة، أي أن الشاعر يستعير من مفردات الطبيعة ما يصف به جمال المرأة، وبهذا تكون الطبيعة دخلت في بناء القصيدة الغزلية، وأوجدت سمة التمازج بين وصف الطبيعة ومفرداتها ومظاهرها، وبين علاقة الشاعر بمحبوبته في جميع أحوالها من رضا ووصال وعشق وغضب وهجر وفراق،

([23]) جودة الرّكابي: الطبيعة في شعر الأندلس، مكتبة أطلس، دم، 1970، ص 38.

وهذا ما بيّنه الرّكابي بقوله: "إنّ الحبّ عنده أساس لتعلقه بالطبيعة، ومحاسن المحبوبة تجد نظائرها في الطبيعة، بل إن الحبيب لأجمل منها. إنّه أجمل من البدر وأبهى، ولو أنّه بات عنده ما تطلع إلى بدر السماء"(24)، وهذا واضح في قول الشاعر(25):

يـــا لَيْـــلُ طُـــلْ، لا أشـــتهي إلاّ بوَصْـــــــلٍ قِصَـــــــرَكْ

لـــو بـــاتَ عنـــدي قَمَـــري مـــا بـــتُّ أَرْعَـــى قَمَـــرَكْ

فاللغة في هذين البيتين سلسلة سهلة مناسبة، تجمع بين أحوال الطبيعة والحب، فلفظة القمر الأولى في صدر البيت الثاني تشير إلى الحبيبة، وفي عجزه تشير إلى القمر الحقيقي الموجود في وسط السماء، وهذا تّمازج لا بل تماهٍ واضح بين مفردات الطبيعة ولغة الحب، وظّفه الشاعر بمهارةٍ عالية. ونلاحظ أن الشاعر كعادة الشعراء العرب ربط في البيت الأول بين الليل ولقاء المحبوبة، ففي حالة اللقاء يتمنى أن يطول الليل، وفي حالة البعد يتمنى أن يقصر، وهنا يقصد الشاعر أنه بحضور الحبيب لا داعي لوجود القمر، فصورة الحبيب وحضوره يُغنيان عن حضور القمر وإضاءته، وهذه قمَّة

(24) المرجع السابق نفسه، ص 35.

(25) ابن زيدون، الديوان، ص 436.

التماهي بين المحبوبة ومفردات الطبيعة، وهذا يدل على مدى التمازج بين الحب والطبيعة.

وحيثما أجال المتلقي نظره في معاني الشعر عند ابن زيدون، يجد نفسه أمام مشاعر الشوق والحب التي ارتبطت بشكل لافت مع مفردات الطبيعة ومعطياتها، إلى حدّ أن الشاعر وحبيبته ولّادة أصبحا يشكلان سرّين متماهيين، مع أحد مظاهر الطبيعة، وهو الظلماء، وهذا ما يظهر جليّا بالأبيات الآتية (26):

كأنّنا لم نبت والوَصلُ ثالثُنا ... والسَّعدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا

إن كان قد عَزَّ في الدُّنيا اللِّقاءُ بكم ... ففي مواقفِ الحشر نلقاكم ويكفينا

سِرَّانِ في خاطِرِ الظّلماءِ يَكتُمُنا ... حتّى يكادَ لسانُ الصُّبحِ يُفشينا

لقد نهض بمهمة اخفاء الشاعر وحبيبته خاطر الظلماء، وهذه مهمة لا يقوم بها إلاّ إنسان. وقد أضفى الشاعر على خاطر الظلماء سمات إنسانية، فصار الليل إنساناً ثالثاً، وهذا تماهٍ جديد بين الحبيبين والطبيعة. أمّا الصباح فقد منحه الشاعر صفة الإنسان فجعل له لساناً لكي يفشي السّر بقدومه، وهذا تماهٍ مضاف. ولا يتأتى للشاعر صنع مثل هذه

([26]) ابن زيدون، الديوان، ص 391.

الأنسنة إلا من خلال لغة مُدّربة على هذه المهمة. وفضلاً عن براعة هذه اللغة في صناعة هذه التشكيلات التشخيصية، فإن ما لدى ابن زيدون من براعة في النسيج، وإتقان السّبك يسهم في تمكين اللغة الجديدة من أداء مهمة التمازج والتآلف، وإنتاج جمل شعرية، وصور يصعب على المتلقي التمييز الدقيق بين ما هو من رصيد الغزل، وما هو من رصيد معجم الطبيعة.

يضاف إلى كل هذا الإبداع أن ابن زيدون استطاع أن يستوحي أجمل ما في الطبيعة، وأجمل ما في المرأة من مظاهر جمالية رائعة ليمزج بينها، ويُشكل صوره الشعرية الساحرة، من خلال ألفاظ المعجمين الوصفي والغزلي المستمدين من عالم الطبيعة، وعالم المرأة.

هذا واضح في هذه الصورة الشعرية التي تجمع بين مفاتن الحبيبة ومفاتن الطبيعة(27):

بَـدَت فـي لِـدَاتٍ كَزُهْـرِ النُّجـومِ حِسَـانِ التَّحَلِّـي، مِـلاحِ العَطَـلْ*

مَشَـــينَ يُهـــادِينَ رَوضَ الرُّبَـــى بيـــانِع رَوْضِ الصِّـــبا المُقتَبَـــل

فَمِـــنْ قُضُـــبٍ تَتَثَنّـــى بِـــرِيحٍ ومِـــنْ قُضُـــبٍ تَتَثنّـــى بِـــدَلّ

(27) ابن زيدون، الديوان، ص 199.

(*) اللدات: من هُن بعمرها/ العَطلُ ضدّ التحَلي، وهو الخلّو من الحلى.

ومِــن زَهَــرَاتٍ تُنَــدَّى بِمِسْــكٍ وَمِــنْ زَهَــراتٍ تُنَــدّى بطَــلّ*

مَـزَادٌ مِـنَ الحُـبّ غَـضُّ الجَنـى لَدَيْــهِ مِــنَ الوَصْــلِ وِرْدٌ عَلَــلْ

هذه صورة متشابكة المفردات من عالمي الطبيعة المحملة بصفات الحبيبة وصديقاتها، فهن في مقتبل الصِّبا يمشين بدلال، كالرّوض المليء بالأزهار المتفتحة، وهنّ يشبهن النّجوم الزّاهرة، إذ يتمايلن بدلالٍ بين أحضان الطبيعة، والماء هو الذي يرويهنّ بالحياة، فهي صورةٌ مفعمة بالأمل، والحياة، والتفاؤل، وفيها استطاع الشاعر أن يمزج بين جمال الحبيبة، وجمال الطبيعة، بلغة بارعة الدقة.

وليس من المبالغة القول بأن المصدر الحقيقي للجمال في هذا المشهد الشعري هو اللغة المصوغة ببراعة، فضلاً عما في ألفاظها من سلاسة مع حسن اختيار الشاعر لمفرداتها، لترسم هذا التمازج بهذه الطريقة الفنية البارعة.

ومن مظاهر البراعة في هذه اللغة، أن بعض مفرداتها تنتمي إلى حقلين لغويين مختلفين، فصارت صالحة للتّوظيف في الغزل، وفي وصف الطبيعة مثل: (روض، وقضيب،

(*) الطلّ: المطر.

وزهرات) مُظهراً من خلالها مفاتن الحبيبة وواصفاً لجمال الطبيعة، محاولاً استخلاص أبرز المظاهر الجمالية في كليهما.

وهكذا تداخلت مفردات الطبيعة مع مفردات الغزل، ومن ثم تداخلت أيضاً صور الحبيبة مع صور الطبيعة، وهذا ظاهر في قوله(28):

وردٌ تــألَّقَ فــي ضَــاحِي مَنابِتِــهِ	فـازداد منــه الضُّـحى فـي العَـيْنِ
ســرى يُنَافِحُــهُ نَيلــوفرٌ عَبِــقٌ	إشــراقا
	وَسْـنانُ نَبَّـهَ مِنــهُ الصُّـبحُ أحْـدَاقَا

فالشاعر يستعير لورد النيلوفر أحداقاً ويجعله وسنان، ويظهر النُّعاس في عينيه، غير أن الصبح ينبهه فيفيق من نعاسه، وهنا يظهر أن ابن زيدون عندما يرسم صور الطبيعة، يستعير لها من مفردات دنيا الحبيبة.

وهذه الخصائص تؤكد مدى تمكن ابن زيدون من التعبير عن صوره، ومعانيه بيسر ووضوح من خلال مزج لغة الحب بلغة الطبيعة، فيتداخل موضوعا الغزل ووصف الطبيعة حتى ظهرا كأنَّهما موضوع واحد.

أخلص من هذا البحث بالنتائج الآتية :

(28) ابن زيدون، الديوان، ص 399.

1. إنّ طبيعة الأندلس الخلابة أثرت بشكل جلي وواضح في شعر ابن زيدون ، من حيث الألفاظ ، والصور ، والدّلالات ، بل تعدّت ذلك لتشكل ظاهرة جديدة هي اشتراك ألفاظ الطبيعة بلغة الغزل لدرجة التّمازج والتّماهي.
2. وظّف ابن زيدون الطّبيعة ليعبّر من خلالها عن حبّه الشّديد لولّادة بنت المستكفي ، فالطبيعة بكل جمالياتها هي ولّادة .
3. نتج عن تمازج لغة الحبّ ولغة وصف الطّبيعة ، لغة جديدة ذات سمات خاصة معبرة عن رؤى الشاعر وأفكاره ، من خلال تشكيلات جديدة للصورة ، مفعمة بالحركة والحياة.
4. وعليه فإنّ وصف الطبيعة والغزل هما موردان أساسيان لهذا الفن الجديد.

وأخيراً:

هذا البحث يفتح ميداناً واسعاً وجديداً للباحثيين للخوض في بحر لغة ابن زيدون، وصوره لاكتشاف جماليات جديدة للغة الحب ، ووصف الطبيعة.

المصادر والمراجع

1. ابن زيدون، ديوانه، تحقيق حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1990.
2. جودة الرّكابي، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، 1960.
3. الخليل بن احمد الفراهيدي : العين : تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ، ص 37-38.
4. سعد اسماعيل الشّلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، دار النهضة للطبع والنشر، القاهرة، 1972.
5. سعد حسين منصور، التجربة الإنسانية في نونية ابن زيدون، الدوحة، قطر، 1983.
6. شوقي ضيف، ابن زيدون، دار المعارف، مصر، ط9، 1979.
7. علي عبد العظيم، ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1955.
8. فوزي حسن الشايب : محاضرات في اللسانيات ، منشورات وزارة الثقافة ، عمّان طبعة الاولى، 1999، ص165-169.
9. فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون ، الناشر مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، تونس، 2004.
10. المقرّي التلمساني، أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية، 1982.

المقرّي التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ،ط1 ، مطبعة السعادة ، مصر 1949.